
صراع اليقين
في
في كلام الأولين
الكاتب
علي طلال الفقهاء

في الساعة التاسعة صباحًا، سمع كريستوفر رنين هاتفه، فهبّ مسرعًا من نومه، فقد كان ينتظر اتصالًا من صديقه.

أجاب على الهاتف بصوت خافت ومليء بالخوف، وكأنه كان ينتظر سماع شيء مهم.

— كريستوفر؟

— نعم يا آرام.

— ما رأيك أن نذهب في رحلة إلى الصحراء الغربية؟ وسأتصل بأصدقائنا الآخرين أيضًا.

أجاب كريستوفر:

— تمام، تحدث معهم. لكن إذا ذهبنا في رحلة إلى الصحراء، فيجب أن نبقى هناك مدة سبعة أيام، حتى نغيّر أنفاسنا.

قال آرام:

— صحيح، ولكن ليس فقط أنفاسنا... بل حتى تفكيرنا.

استغرب كريستوفر كلامه، وقال:

— ماذا تقصد يا آرام؟

ضحك آرام قليلًا وقال:

— لا أدري، فقط قلت هذه الجملة لأنها جميلة.

أنهى كريستوفر المكالمة مع آرام، ثم ذهب ليحضر فنجانًا من القهوة.

جلس ينظر إلى السماء، لكنه شعر بشعور غريب.

كان هناك إحساس داخله بأن شيئًا ما في تلك الصحراء ينتظرهم.

لكنه لم يكن يعلم ما هو.

حاول تجاهل ذلك الشعور، ثم خرج إلى السوبر ماركت واشترى بعض الأشياء التي يحتاجون إليها في الرحلة، من طعام وماء وغيرهما من المستلزمات.

وبينما كان يتجول بين الرفوف، لفت انتباهه شيء غريب.

كان هناك غرض يحمل رموزًا لم يفهم معناها.

ظل ينظر إليه للحظات، وشعر بشيء غريب تجاهه، لكنه لم يعرف ما الذي تعنيه تلك الرموز.

ومع ذلك، أخذه معه.

في الساعة السابعة مساءً، التقى كريستوفر بآرام وبقية أصدقائهم عند محطة وقود تقع على الطريق السريع، قبل الدخول إلى الصحراء.

اتفقوا على الانطلاق مباشرة، حتى يصلوا إلى عمق الصحراء بأسرع وقت ممكن، قبل أن يحل الظلام بشكل كامل.

انطلقوا في طريقهم.

ومع مرور الوقت، بدأت أضواء المدينة تختفي خلفهم شيئًا فشيئا، حتى لم يعد حولهم سوى الصحراء.

وبعد أن توغلوا في الطريق، وصلوا إلى مكان عميق داخل الصحراء، فتوقفوا.

لكن قبل دخولهم الصحراء، كانت هناك علامة غريبة على جانب الطريق.

اقترب كريستوفر منها وقرأ ما كُتب عليها:

لا تكن ما كانوا، لكي لا تموت كما ماتوا.

نظر إلى أصدقائه، لكن أحدًا لم يقل شيئًا.

واصلوا طريقهم حتى وصلوا إلى مكان مناسب للتوقف.

أشعلوا النار وجلسوا حولها لبعض الوقت.

ثم...

كانت النار قد انطفأت تمامًا.

لم يعد الأصدقاء يرون سوى ظلام الصحراء، وسماء مليئة بالنجوم.

ظلوا صامتين للحظات.

قال آرام:
— هل سمعتم ذلك؟

أجاب أحدهم:
— سمعت ماذا؟

نظر آرام إلى الظلام وقال:
— كان هناك صوت.

قال كريستوفر:
— ربما كان مجرد صوت الرياح.

لكن كريستوفر نفسه لم يكن مقتنعًا بما قاله.

أمسك الكتاب القديم، وأشعل مصباح هاتفه، ثم بدأ يقلب صفحاته.

كانت معظم الصفحات فارغة.

لكن عندما وصل إلى منتصف الكتاب، وجد كلمات مكتوبة بلغة غريبة.

قال:
— لا أفهم شيئًا.

اقترب آرام منه.

— ربما نستطيع تصويرها والبحث عنها لاحقًا.

قال كريستوفر:
— انتظر.

كانت هناك جملة واحدة مكتوبة بلغة يفهمونها.

قرأها بصوت مرتفع:

ليس كل ما ورثتموه حقيقة، وليس كل ما شككتم فيه كذبًا.

ما إن انتهى من قراءة الجملة حتى سمعوا صوتًا خلفهم.

طَق.

التفتوا جميعًا.

لم يكن هناك أحد.

ثم جاء الصوت مرة أخرى.

طَق... طَق... طَق.

هذه المرة كان أقرب.

قال أحدهم

— لنغادر الآن.

وقف آرام بسرعة، لكنه توقف عندما رأى شيئًا على الرمال.

كانت آثار أقدام.

نظروا إليها بدهشة.

قال آرام:

— هذه آثارنا.

ثم سكت.

رفع المصباح وأشار إلى الرمال أمامهم.

كانت هناك آثار أقدام خامسة.

لم تكن آثارًا قديمة.

كانت واضحة، وكأن شخصًا كان يمشي معهم منذ دقائق.

قال أحدهم:

— نحن أربعة.

لم يجب أحد.

بدأت آثار القدم الخامسة تتحرك أمامهم، مبتعدة عن المخيم، وكأن شخصًا غير مرئي يسير نحو أعماق الصحراء.

قال كريستوفر:
— لا تتبعوها.

نظر إليه آرام.

— لماذا؟

— لأننا لا نعرف إلى أين تقود.

ابتسم آرام ابتسامة متوترة وقال:
— أليس هذا بالضبط ما كنت تتحدث عنه؟ أن نكتشف بأنفسنا؟

أجاب كريستوفر:
— اكتشاف شيء لا يعني أن نتبع كل شيء.

لكن أحد أصدقائهم قال:
— ربما هناك شخص يحتاج للمساعدة.

ثم بدأ يمشي خلف الآثار.

صرخ كريستوفر:
— توقف!

لكن الرجل لم يتوقف.

نظر آرام إلى كريستوفر وقال:
— سنذهب معه.

ثم تبعه.

وبعد لحظات، لم يبق أمام كريستوفر إلا خيار واحد.

أن يتبعهم.

وكعادته...

تبعهم.

بعد مسافة طويلة، وجدوا شيئًا لم يكن موجودًا على أي خريطة.

كان هناك بناء حجري قديم وسط الصحراء.

بدا وكأنه معبد مهجور.

كانت جدرانه مغطاة برموز تشبه تلك الموجودة على غلاف الكتاب.

اقترب آرام من الباب.

قال:

— هذا المكان قديم جدًا.

وضع يده على الباب.

فانفتح وحده.

تراجع الجميع.

قال كريستوفر:

— لا تدخل.

نظر إليه آرام.

— لماذا؟

— لأن الباب لم يُفتح من أجلنا.

قال آرام:

— وربما فُتح لنا.

ثم دخل.

دخل الآخرون وراءه.

وبقي كريستوفر للحظات خارجًا.

نظر إلى الصحراء.

ثم إلى أصدقائه.

ثم دخل.

كان المعبد مظلمًا.

وفي وسطه، وجدوا دائرة حجرية كبيرة.

وفي داخل الدائرة أربعة كراسٍ.

أربعة فقط.

قال أحدهم:
— هذا غريب.

اقترب كريستوفر من أحد الكراسي.

وجد اسمه محفورًا عليه.

تراجع بسرعة.

— هذا مستحيل.

اقترب آرام.

كان اسمه هو الآخر محفورًا على كرسي.

ثم ظهرت أسماء الآخرين.

لم يتحدث أحد.

قال كريستوفر:
— كيف عرفوا أننا سنأتي؟

لم يجب آرام.

وفي تلك اللحظة، أُغلق الباب خلفهم.

دَويٌّ قوي هزّ المكان.

حاولوا فتحه.

لم يتحرك.

صرخ أحدهم:
— نحن محاصرون!

قال آرام:
— اهدأ.

نظر إليه كريستوفر بغضب.

— اهدأ؟! أنت من قلت لنا أن ندخل!

قال آرام:
— لم أجبر أحدًا.

سكت كريستوفر.
كانت تلك الجملة مألوفة جدًا.
لقد سمعها من قبل.
ليس من آرام فقط.
من أشخاص كثيرين في حياته.
لم أجبرك.
لكن الحقيقة كانت مختلفة.
فهو كان يتبعهم دائمًا.

ليس لأنهم يجبرونه...
بل لأنه يخاف أن يختلف عنهم.
بدأت الرموز على الجدران تضيء.
ثم ظهر شيء غريب.

أمامهم، على أحد الجدران، بدأت تظهر صور.
رأوا رجالًا ونساءً من عصور قديمة.
كانوا يجلسون في المكان نفسه.

ثم ظهرت صورة أخرى.
أشخاص يركعون أمام رجل يحمل الكتاب.
قال آرام:
— ما هذا؟
اقترب كريستوفر.
ثم ظهرت كلمات على الجدار:
كانوا يبحثون عن الحقيقة.

تغيرت الصورة.

ظهر الرجل نفسه وهو يعطي الكتاب لشخص آخر.

ثم ظهرت كلمات:

ثم وجدوا من يفكر عنهم.

قال كريستوفر:
— التبعية...

ظهرت صورة ثالثة.

كان الناس يسيرون خلف شخص واحد.

لا يسألونه.

لا يناقشونه.

فقط يتبعونه.

ثم ظهرت عبارة:

حين يتوقف الإنسان عن السؤال، يصبح مستعدًا لعبادة الإجابة.

ساد الصمت.

قال آرام:
— ربما هذا تحذير.

رد كريستوفر:
— أو ربما هو فخ.

قال آرام:
— أنت تشك في كل شيء.

قال كريستوفر:
— وأنت تثق في كل شيء.

اقترب آرام منه.

— وأنا على الأقل أستطيع الاعتراف بأن هناك من هو أعلم مني.

رد كريستوفر:
— وأنا أستطيع الاعتراف بأنني لا أعلم.

ثم قال:

— الفرق بيننا أنني أبحث، وأنت تبحث عمّن تتبعه.

فجأة...

سمعوا صوتًا.

صوتًا يشبه صوت رجل عجوز.

قال:

— ومن قال إنكم تبحثون؟

تجمدوا في أماكنهم.

نظروا حولهم.

لم يكن هناك أحد.

قال آرام:
— من أنت؟

جاء الصوت من خلفهم:

— أنا الذي تبحثون عنه.

ابتسم الرجل.

— السؤال الصحيح ليس من أنا.

اقترب خطوة.

— السؤال هو: لماذا جئتم؟

لم يجب أحد.

قال الرجل:
— لأنكم اتبعتم بعضكم بعضًا.

نظر إلى آرام.

— أنت دخلت لأنك أردت أن تثبت أنك شجاع.

ثم نظر إلى بقية الأصدقاء.

— وأنتم دخلتم لأن أحدًا منكم دخل.

ثم نظر إلى كريستوفر.

وسكت طويلًا.

قال كريستوفر:

— ماذا تريد مني؟

ابتسم الرجل.

— أنت بالذات...

ثم قال:

— أنت لم تأتِ لأنك أردت المجيء. أنت أتيت لأنهم أتوا.

شعر كريستوفر بقشعريرة في جسده.

كان الرجل يعرفه.

يعرف شيئًا لم يخبره به أحد.

قال كريستوفر:

— من أخبرك عني؟

ضحك الرجل.

— لم يخبرني أحد.

ثم أشار إلى الكتاب.

— الكتاب يعرف.

سقط الكتاب من يد كريستوفر.

وانفتح على صفحة جديدة.

كانت الصفحة تحتوي على أربعة أسماء.

أسماء أصدقائه.

وتحت كل اسم جملة.

قرأ آرام اسمه.

ثم تغير وجهه.

قال:

— لا...

أخذ كريستوفر الكتاب منه.

كانت الجملة تحت اسم آرام:

يتبع لأنه يخاف أن يكون مخطئًا.

ثم اسم الصديق الثاني:

يتبع لأنه يخاف أن يكون وحيدًا.

والثالث:

يتبع لأنه لا يعرف ماذا يريد.

ثم جاء اسم كريستوفر.

قرأه بصوت منخفض.

وكانت الجملة:

يتبع الجميع... ثم يقنع نفسه بأنه اختار.

لم يستطع كريستوفر الكلام.

أغلق الكتاب.

لكن عندما رفع رأسه، لم يعد الرجل موجودًا.

بدأت الجدران تهتز.

سمعوا أصواتًا كثيرة.

أصوات رجال ونساء وأطفال.

كل صوت يقول شيئًا مختلفًا.

اتبعني.

لا تسأل.

نحن نعرف أكثر منك.

لقد عاش أجدادنا هكذا.

لا تختلف.

الجميع يفعل ذلك.

وضع كريستوفر يديه على أذنيه.

صرخ:

— اصمتوا!

لكن الأصوات أصبحت أعلى.

نظر إلى أصدقائه.

كانوا واقفين وكأنهم فقدوا القدرة على الحركة.

قال آرام:

— ماذا نفعل؟

لأول مرة، لم يعرف كريستوفر ماذا يقول.

انتظر أن يقترح أحدهم شيئًا.

ثم أدرك الأمر.

لقد عاد إلى عادته القديمة.

كان ينتظر شخصًا آخر ليقرر عنه.

خفض يديه.

وقال:

— لا أعرف.

نظر إليه آرام.

— ماذا؟

قال كريستوفر:

— لا أعرف ماذا نفعل.

ثم ابتسم رغم خوفه.

— وهذه أول مرة أقولها دون أن أشعر بالخجل.

نظر آرام إليه طويلًا.

ثم قال:

— وأنا أيضًا لا أعرف.

توقف صوت الجدران.

ثم اختفت الأصوات.

ساد الصمت.

ظهر باب في نهاية القاعة.

وعليه كلمة واحدة:

اختاروا.

قال آرام:

— علينا أن نخرج.

قال أحدهم:

— إذًا نفتح الباب.

تقدموا.

لكن عندما لمس آرام المقبض، ظهرت عبارة أخرى:

ليس معًا.

تراجع.

قال كريستوفر:
— كل واحد منا يجب أن يختار وحده.

قال آرام:
— وإذا أخطأنا؟

أجاب كريستوفر:

— سنعرف أننا أخطأنا لأننا اخترنا بأنفسنا.

نظر آرام إليه.

ثم وضع يده على الباب.

فتح.

وجدوا أنفسهم في أربعة ممرات.

كل ممر يحمل اسم أحدهم.

قال آرام:
— يبدو أن كل واحد منا يجب أن يسلك طريقه.

قال كريستوفر:
— ربما.

قال أحدهم:
— وماذا لو لم نعد؟

أجاب كريستوفر:

— عندها على الأقل لن نكون قد عدنا كما دخلنا.

افترقوا.

دخل كريستوفر ممره.

كان مظلمًا.

وفي نهايته رأى نفسه طفلًا.

كان جالسًا بين مجموعة من الأشخاص.

كلهم يقولون له:

افعل مثلنا.

ثم رأى نفسه يكبر.

وفي كل مرحلة من حياته كان هناك شخص يخبره ماذا يفعل.

اذهب معهم.

لا تقل لا.

ماذا سيقول الناس عنك؟

الجميع يفعل ذلك.

لا تكن مختلفًا.

أغمض عينيه.

قال:

— كفى.

فتح عينيه.

وجد أمامه مرآة.

نظر إليها.

لكنه لم ير وجهه.

رأى وجوه أصدقائه.

ثم وجه آرام.

ثم وجوه أشخاص لا يعرفهم.

ثم اختفت جميع الوجوه.

وبقي وجهه وحده.

قال صوت من خلفه:

— هل تستطيع أن تعيش دون أن يخبرك أحد كيف تعيش؟

التفت.

لم يكن هناك أحد.

قال:

— لا أعرف.

ظهر السؤال مرة أخرى:

— هل تستطيع؟

فكر طويلًا.

ثم قال:

— سأحاول.

تحطمت المرآة.

في الجانب الآخر، كان آرام يسير في ممره.

كان يسمع صوت أبيه.

ثم صوت جده.

ثم أصوات أناس عاشوا قبله.

كانوا يقولون:

لا تغير ما وجدناه.

نحن نعرف ما هو الأفضل.

احذر من السؤال.

وقف آرام.

وقال:

— لكن لماذا؟

توقف الصوت.

قال:

ـــ لماذا؟

لم يجبه أحد.

كرر:

ـــ لماذا؟

ثم جاء صوت غاضب:

ـــ لأننا قلنا ذلك!

ابتسم آرام.

وقال:

ـــ هذا ليس جوابًا.

لأول مرة، شعر بالخوف الحقيقي.

ليس من الأشباح.

بل من السؤال.

لأنه أدرك أن بعض الأفكار تستمر عبر الأجيال ليس لأنها صحيحة...

بل لأن أحدًا لم يجرؤ على سؤالها.

بعد وقت طويل، عاد الأربعة إلى القاعة.

كان كل واحد منهم مختلفًا.

لم يتحدثوا.

نظروا إلى الكتاب.

كان مفتوحًا على صفحة جديدة.

وفيها عبارة:

لقد اخترتم.

ثم بدأت الصفحات تتقلب وحدها.

حتى توقفت عند الصفحة الأخيرة.

كانت بيضاء.

قال أحدهم:

— انتهى؟

أجاب كريستوفر:

— لا.

ثم أخذ القلم الموجود بجانب الكتاب.

كتب في الصفحة:

نحن لا نرفض الماضي، ولا نعبد المستقبل. نحن نفكر.

نظر آرام إليه.

ثم أخذ القلم.

وكتب:

ومن حقنا أن نسأل.

كتب الصديق الثالث:

ومن حقنا أن نختلف.

أما الرابع فكتب:

ومن حقنا أن نقول: لا أعرف.

عندما انتهوا، بدأ الكتاب يحترق.

صرخوا.

لكن النار لم تكن تحرقهم.

كانت تلتهم الصفحات واحدة تلو الأخرى.

حاول آرام إنقاذه.

صرخ كريستوفر:

— اتركه!

قال آرام:

— لماذا؟

أجاب:

— ربما هذا هو الاختبار الأخير.

ترك آرام الكتاب.

وفي لحظات...

تحول إلى رماد.

ثم اختفى الرماد في الهواء.

وفُتح باب المعبد.

ظهر ضوء الشمس.

خرجوا.

كانت الصحراء هادئة.

لكن شيئًا كان مختلفًا.

نظروا إلى المكان.

لم يجدوا أي معبد.

ولا آثارًا.

ولا حتى آثار أقدامهم.

كأنهم لم يكونوا هناك أصلًا.

قال آرام:

— كم مضى من الوقت؟

نظر أحدهم إلى هاتفه.

تغير وجهه.

— ثلاثة أيام.

قال كريستوفر:

— مستحيل.

كانوا يعتقدون أنهم قضوا ساعات فقط.

لكنهم عندما عادوا إلى مخيمهم، وجدوا الخيام كما تركوها.

أما السيارة...

فكانت مغطاة بالرمال.

عادوا إلى المدينة.

لم يخبروا أحدًا بما حدث.

لكن كريستوفر لم يعد كما كان.

لم يعد يسأل أصدقاءه:

ماذا سنفعل؟

بل أصبح يسأل:

ماذا أريد أنا؟

أما آرام، فلم يتخلَّ عن أفكار أجداده.

لكنه بدأ يقرأها.

يسأل عنها.

يناقشها.

يفهم أسبابها.

ثم يختار منها ما يراه صحيحًا.

وفي إحدى الليالي، بعد مرور عام على الرحلة، كان كريستوفر جالسًا وحده في غرفته.

فتح هاتفه.

وجد صورة قديمة التقطها قبل الرحلة.

كانت صورة للأصدقاء الأربعة في الصحراء.

لكنه لاحظ شيئًا غريبًا.

في خلفية الصورة...

كان هناك شخص يقف بعيدًا.

رجل طويل.

يرتدي ملابس سوداء.

نظر كريستوفر إلى الصورة طويلًا.

ثم قرّبها.

كان الرجل يبتسم.

شعر بقشعريرة.

فتح الصورة مرة أخرى.

لكن الرجل لم يعد موجودًا.

تنفس بارتياح.

ثم وصلته رسالة من رقم مجهول.

فتحها.

كانت تحتوي على جملة واحدة:

لقد تعلمت كيف لا تتبعهم...

ثم وصلت رسالة ثانية:

لكن هل تعلمت كيف لا تتبع نفسك؟

تجمد كريستوفر.

وبعد لحظات، وصلت رسالة ثالثة:

الكتاب لم يمت.

رفع كريستوفر رأسه ببطء.

كان يسمع صوتًا من خلفه.

صوت تقليب صفحات.

صفحة...

ثم صفحة...

ثم صفحة.

لم يجرؤ على الالتفات.

لكن صوتًا همس بالقرب من أذنه:

كل إنسان يتبع شيئًا يا كريستوفر... حتى الذين يظنون أنهم أحرار.

أطفأ كريستوفر المصباح.

وفي الظلام...

سمع صوتًا يعرفه جيدًا.

كان صوت آرام.

يقول:

— كريستوفر... لا تتبعني.

ثم سمع صوت خطوات تقترب.

خطوة...

ثم خطوة...

ثم خطوة...

رفع كريستوفر هاتفه وأضاء المصباح.

لم يكن هناك أحد.

لكن على مكتبه كان هناك شيء لم يكن موجودًا قبل لحظات.

الكتاب.

نفس الكتاب الأسود.

نفس الرموز.

نفس الغلاف.

فتحه كريستوفر بيد مرتجفة.

كانت الصفحة الأولى فارغة.

ثم بدأت الكلمات تظهر أمام عينيه ببطء:

الجزء الأول انتهى.

وتحتها ظهرت جملة أخرى:

أما التبعية الحقيقية... فلم تبدأ بعد.

أغلق كريستوفر الكتاب.

ومنذ تلك اللحظة، لم يعد يعرف شيئًا واحدًا:

هل عاد هو وأصدقاؤه من الصحراء...

أم أن شيئًا من الصحراء عاد معهم؟


حين تقفد بوصلتك
وتبتلعك عتمة الأسئلة الكبرى
لا تقاوم السقوط
فربما في قاع هذا الضياع المظلم
تبدأ رحلة النجاة الوحيدة
التي تخصك وحدك